

المناسبات بين آيات السورة القرآنية وأثرها في الوحدة الموضوعية وإعجاز القرآن
(سورة الكهف أمودجا)

The Relations Between the Verses of the Qur'anic Surah and their
Impact on Thematic Unity and the Miracle of the Qur'an
-Surat al-Kahf as an Example -

سلطاني بلقاسم*

Soltani Belkacem

محر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر

Ibn Khaldoun University - Tiaret - (Algeria)

belkacem.soltani@univ-tiaret.dz

تاريخ النشر: 2025/06/02

تاريخ القبول: 2025/05/16

تاريخ الإرسال: 2025/03/15

مُلَخَّصُ الْبَحْثِ

يهدف هذا البحث إلى بيان الوحدة الموضوعية في سورة الكهف، وذلك بتحديد الموضوع العام الذي تتحدث عنه السورة وعلاقته بالموضوعات الفرعية التي اشتملت عليها، لا سيما القصص الأربعة التي وردت فيها والمقاطع التي تخللتها، محاولا الكشف عن المناسبات التي تربط هذه الموضوعات فيما بينها، والتعرف على التسلسل الدلالي والمضموني للآيات، خصوصا أن هذه المناسبات تتميز بالخفاء والدقة، فتبدو المقاطع القرآنية لغير المتدبر أنها غير منسجمة ولا مترابطة.

ومن نتائج هذا البحث أن السورة القرآنية تتميز بوحدة موضوعية عامة تدور حولها أجزاء السورة وفصولها، مما يكسبها تماسكا وانسجاما. وفيه ردٌّ على المستشرقين الذين يرون السورة مجموعة مواضيع متنوعة لا رابط بينها. كلمات مفتاحية: سورة الكهف، وحدة الموضوعية، مناسبات، انسجام.

Abstract :

This research aims to show the thematic unity in Surat al-Kahf by identifying the general theme of the Surah and its relationship to the sub-themes it contains, especially the four stories and the passages that interspersed them, trying to uncover the relation that link these themes between them, and identify the semantic and content sequence of the verses, especially since these relations are

* سلطاني بلقاسم: belkacem.soltani@univ-tiaret.dz

characterized by subtlety and subtlety, making the Qur'anic passages seem inconsistent and unconnected to those who do not consider them.

One of the results of this research is that the Qur'anic sura is characterized by a general thematic unity around which the parts and chapters of the sura revolve, giving it coherence and harmony. It is a response to the Orientalists who see the Surah as a collection of diverse themes with no connection between them

Keywords: Surah Al-Kahf, thematic unity, occasions, coherence.



1. مقدمة:

بعد تطور البحث اللغوي من التركيز على بنية الجملة إلى التركيز على التحليل النصي، سعى العديد من العلماء إلى نقل هذا التخصص الجديد إلى اللغة العربية، ساعين إلى تطبيقه في المؤلفات الأدبية العربية، فالمنهجيات المتأصلة في هذا التخصص قابلة للتطبيق عبر النصوص المتنوعة، بغض النظر عن أصلها اللغوي. عند محاولة توسيع هذا الإطار إلى التحليل النصي للقرآن، تردد بعض الباحثين في متابعة هذا الخط من البحث بسبب المكافحة الموقرة للقرآن. ومع ذلك، انخرط بعض العلماء في فحص تحليلي للنص القرآني، مستخدمين مبادئ هذا التخصص من خلال التعامل مع القرآن ككيان نصي. يشمل هذا الكيان مرسلا، أي: الله سبحانه وتعالى، يتم نقله من خلال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، إلى جانب كل قارئ أو مستمع للقرآن الكريم. تستند المعايير النصية المطلوبة لفهم رسالتها ونقلها إلى الجمهور بشكل أساسي على مبادئ التماسك والوحدة. وقد أكد العلماء باستقرار على هذين المعيارين الحيويين في العديد من سور القرآن، لا سيما ردًا على تأكيدات بعض المستشرقين الذين يؤكدون أن سور القرآن الكريم تفتقر إلى الترابط والتماسك، ووصفوها بأنها مجرد مجموعة من الموضوعات المتباينة الخالية من الوحدة. يسعى هذا البحث إلى توضيح التماسك النصي المتأصل في النص القرآني من خلال الوحدة الموضوعية لكل سورة، وكذلك من خلال المناسبات بين آياته، وهو محور اهتمام علمائنا في الكشف عن العلاقات المتبادلة بين السور، وكذلك الآيات داخل السورة.

لقد اخترت سورة الكهف لأنها تشمل مجموعة متنوعة من الموضوعات، بما في ذلك أربع مقاطع يبدو أنها تفتقر إلى أي صلة جوهرية. تثير هذه الملاحظة استفسارات نقدية مثل: ما هو الأساس المنطقي لإدراج هذه القصص بالذات في هذه السورة؟ ما علاقتها بالمقطع اللاحق؟ ما أهمية الانقطاعات التي تتخللها المقاطع؟ والأهم من ذلك، هل تسهم هذه المقاطع والسرديات في موضوع واحد أو مواضيع متعددة؟

للإجابة على هذه الاستفسارات، قمت بتنظيم البحث في قسمين متميزين: قسم نظري مخصص لتعريف المصطلحات ذات الصلة ودراسة تطبيقية تستكشف سورة الكهف، وتفحص سياقها التاريخي وأهدافها

والأحداث الداخلية والخارجية. يستخدم هذا التحليل منهجية وصفية تحليلية مناسبة لمثل هذه البحوث، بالاعتماد على التفسير والعلوم القرآنية ودراسات معاصرة مختارة. نسأل الله أن يمنحنا العون في استكشاف هذا المسعى البحثي والمساهمة بإضافة قيمة إلى مجال الدراسات اللغوية النصية.

أولاً: مصطلحات البحث:

يتم تصنيف التفسير إلى قسمين: التفسير الترتيبي الذي استخدمه العلماء منذ ظهور التأليف في مجال دراسات التفسير. يهدف هذا النهج إلى توضيح معاني الآيات من البداية إلى النهاية، بما في ذلك كل سورة وآية فردية. والثاني: تفسير موضوعي، والذي ظهر مؤخرًا يهتم هذا النوع بالمواضيع المنتشرة في أقسام مختلفة من القرآن الكريم. أظهر العلماء اهتمامًا شديدًا بالتأسك الموضوعي للقرآن الكريم. كما ركزوا على تحليل آيات القرآن الكريم، وتميز مكوناته وأسراره وعناصره الإعجازية، بالإضافة إلى ربط المقاطع والمواضيع التي تتعلق بموضوع واحد. قبل الولوج في البحث، من الضروري فهم مصطلح التفسير الموضوعي وركائزه التأسيسية، والتي تشمل الوحدة الموضوعية وعلم المناسبات.

1- تعريف التفسير الموضوعي:

هو بيان الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد وإن اختلفت عباراتها وتعددت أماكنها، مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه، ولم بكل أطرافه، وإن أعوزه ذلك لجأ إلى التعرض لبعض الأحاديث المناسبة للمقام لترديدها إيضاحاً وبياناً¹.

2- أنواعه:

لقد تعددت آراء الباحثين من خلال البحث في تاريخ التفسير الموضوعي على أن التفسير الموضوعي ليس على شكل واحد، بل هو أشكال وألوان متعددة، واستقرت أفكارهم على ثلاثة منه²:

الأول: أن يتناول الباحث كلمة من كلمات القرآن الكريم ثم يقوم بجمع الآيات التي ذكرت فيها الكلمة أو مشتقاتها من جذرها اللغوي، وبعد جمع الآيات وتفسيرها يحاول استخراج دلالات الكلمة من خلال استخدام القرآن الكريم لها. تصبح هذه الكلمة مصطلحاً من المصطلحات القرآنية، مثل الأمة، الربا.

الثاني: تحديد موضوع يرنو الباحث تناوله في القرآن الكريم، مستخدماً أساليب متنوعة من العرض والتحليل والمناقشة والتفسير. يتتبع الباحث الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، مستخرجاً الآيات التي تتناولها. بعد جمع هذه الآيات وتفسيرها، يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من الآيات. هذا النوع من التفسير الموضوعي شائع بين المتخصصين، وعند استخدام مصطلح "التفسير الموضوعي" يكاد لا يتطرق الذهن إلى غيره.

الثالث: هذا النوع مشابه للنوع الثاني، إلا أن نطاقه أضيق من سابقه. يستكشف هذا النوع المقصد الأساسي للسورة الواحدة، وهو محور التفسير الموضوعي للسورة.

النوع الأخير من التفسير الموضوعي وثيق الصلة ببحثنا، لأنه يستكشف الوحدة الموضوعية للسورة والارتباطات بين اسم السورة وموضوعاتها وآياتها، وبدايتها ونهايتها، وما قبلها وما بعدها. وهذا يحقق التماسك، فتبدو السورة وكأنها كلمة واحدة، مترابطة أجزاؤها، ومتتابة معانيها.

3 - الوحدة الموضوعية:

تعني الوحدة الموضوعية أن لكل سورة موضوعًا أو مواضيع رئيسية وخصائص بارزة. ورغم تنوع موضوعاتها، إلا أن بينها ترابطًا، وروحًا تسري في الأحكام والمبادئ التي تستحضرها، وفي القصص والمشاهد التي تذكرها. فالسورة كالسوار، تحيط بموضوعاتها، كما يحيط السوار بالمعصم، وقد تشير الوحدة الموضوعية أيضًا إلى مقاصد السورة وأهدافها. فكل سورة من سور القرآن الكريم تتضمن مقصدًا أو مقاصد متنوعة، مترابطة في تناسق وانسجام يؤكدان إعجاز القرآن.³

فالسورة القرآنية تحافظ على وحدتها رغم نزول بعض مقاطعها في أزمان متفرقة، فإن ترابط هذه المعاني في السورة مثل ترابط الغرف في المبنى، بل تتشابه فيها كما تتحكم الأعضاء في جسم الإنسان. هناك رابط مهم بين كل قطعة وجارتها، وراء كل هذا، ثمة اتجاه محدد يسري في السورة ككل، ويؤدي معًا غرضًا محددًا، كما يتخذ الجسم شكلًا واحدًا ويتعاون ككل لأداء غرض واحد، على الرغم من اختلاف وظائفه العضوية.⁴

ويرى سعيد حوى رادًا على شبهات المستشرقين أن فهم العلاقة بين الآيات والسور، وإبراز وحدة القرآن الكريم، يُفند فكرة أن القرآن الكريم لا يجمع آياته في سورة واحدة أي جامع، ولا يجمع سورته ربطًا وثيقًا. وهذا لا يليق بكلام البشر، فما بالك بكلام رب العالمين. ومن المريب جدًا أن يُحاول أحد إيهام المسلم بأن كتاب الله منسوخ من كتب البشر في هذا الصدد.⁵

إن الموضوعات التي تتناولها السورة ترتبط ارتباطًا وثيقًا باسمها. وكما أن النصوص أو الكتب لها عناوين تشيرها وتلخص أفكارها، فإن أجزاء النص، وفقراته، وأفكاره تدور جميعها حول هذا العنوان. إن اسم السورة أو مقدمتها يشير إلى المحور الرئيسي الذي تدور حوله مواضيعها وأقسامها، مما يضمن الانسجام والتوافق الدلالي الداخلي بين اسم السورة والأجزاء التي تتكون منها.

إن تسمية السور توقيفية، مما يدل على الارتباط الوثيق بين اسم السورة ومضمونها. فإن تسميتها تخفي أسرارًا، وهذا ما يؤكد علماءنا القدماء أن اسم السورة يدل على معناها وينبئ بمضمونها.

يقول الزركشي: "ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسماؤها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز".⁶

4 — المناسبة:

المناسبة لغة: قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: "النون، والسين، والباء، كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء، منه النسب، سمي لاتصاله، وللاتصال به تقول: نسبت أنسب. وهو نسيب فلان... والنسيب: الطريق المستقيم، لاتصال بعضه من بعض".⁷ وقال في لسان العرب: "وتقول: ليس بينهما مناسبة، أي: مشكلة".⁸ وفي الاصطلاح يعرفها البقاعي (ت: 855هـ) بقوله: "علم تعرف به علل ترتيب آي القرآن وسوره بحيث يؤدي إلى تحقيق المعاني بما اقتضاه من الحال".⁹

ويرى أنه بهذه المعرفة يثبت الإيمان في القلب، ويستقر في العقل، لأنه يكشف عن أن للإعجاز طريقين: أحدهما تنظيم كل جملة على حدة حسب بنيتها، والثاني تنظيمها مع أختها من حيث الترتيب.¹⁰ من خلال هذين التعريفين، نجد أنهما يتضمنان مصطلحات مهمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصطلحي الاتساق والترابط في اللغويات النصية، أي الترابط والترتيب اللذين يؤديان إلى اتساق المعاني وانتظام التراكيب. ويمثل الترابط مختلف الروابط اللفظية والدلالية التي تجعل من الكلام أو النص سلسلة من التسلسلات المتماثلة والمتتالية في محتواها، حتى يصبح هذا النص بنية متكاملة تخدم الغرض الذي صُنع من أجله والهدف الذي أنجب بسببه. لم يكنف القدماء ببيان أوجه الترابط بين الآيات والسور، بل نجدهم يشيرون إلى بعض آليات التناغم بينها. لذا يرى الزركشي أن الترابط أمرٌ عقليٌّ يُعرض على العقل، ويُقبل. وهكذا الترابط في بدايات الآيات وخواتمها. ومرجعه - والله أعلم - إلى معنى يربط بينها: عالمٌ أو خاص، عقلائي، حسي، أو خيالي، ونحو ذلك من أنواع العلاقات. أو ارتباطٌ عقليٌّ: كالعلة والمعلول، والسبب والمعلول، والنظير والضد، ونحو ذلك. أو ارتباطٌ خارجيٌّ: كالترتيب على ترتيب الوجود في باب الأخبار. وفائدته أن يغلب بعض الكلام على بعض، فيقوى الترابط، فيصير التركيب كالبناء المتين المتناسق الأجزاء.¹¹

ويمدنا السيوطي بقاعدة عامة في استنباط المناسبات بأنه لمعرفة مناسبات تلاوة الآيات في القرآن الكريم، يُنصح بدراسة غرض السورة، ومتطلبات مقدماتها، وقربها من المقصود، وتوقع السامع لما يترتب عليها من أحكام، مما يتطلبه البلاغة لإشباع فضوله، بإزالة عناء الترقب اللازم للتأمل فيه. هذا هو المبدأ الأساسي الذي يحكم الترابط بين أجزاء القرآن الكريم. إذا فعلت ذلك، سيتضح لك الترتيب، مفصلاً بين كل آية وسورة.¹²

ولأهمية علم المناسبات أخذ علماءنا قديماً وحديثاً للتأليف فيه، ومن بينهم: الغرناطي "البرهان في ترتيب سور القرآن" والرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب"، والبقاعي في تفسيره المانع "نظم الدرر"، والسيوطي في كتابه "تناسق الدرر في تناسب السور"، ومن المحدثين ابن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير"، وسيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن"، والرافعي في كتابه "إعجاز القرآن والسنة النبوية"، ومحمد دراز في كتابه "النبأ العظيم".

وقد استخلص الخطابي بعد دراسة وافية لأعمال بعض القدامى من المفسرين والمصنفين في علوم القرآن أنهم اهتموا بالاتساق الذي يندرج تحته المستويان النحوي (العطف، الإحالة، الإشارة) والمعجمي (التكرير، بناء السورة على

حرف (أو حروف)، وبالانسجام (موضوع الخطاب، ترتيبه، تنظيمه، العلاقات كالبیان والتفسير، والإجمال والتفصيل، والعموم والخصوص) الذي يندرج تحته المستوى الدلالي¹³.

ثانياً: الدراسة التطبيقية

1- التعريف بسورة الكهف:

سورة الكهف ويطلق عليها أيضاً سورة أصحاب الكهف مكية باتفاق المفسرين، كما روى ذلك ابن عطية¹⁴، وعدد آياتها 110 آية بالعدد الكوفي، و105 بالعدد المدني، وقد جاء نزولها في مكة في سياق الفتن والابتلاءات التي لقيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه نتيجة معارضة قومه المشركين وانحرافهم عن طريق الدعوة الإسلامية. وازداد عنادهم وإصرارهم عندما استعانوا باليهود لإسكات النبي وإثبات بطلان دعوته. ولذلك كان نزول هذه السورة الكريمة تسلياً وتأليفاً للنبي صلى الله عليه وسلم، ودليلاً واضحاً قاطعاً على صدقه.

وعن فضائل هذه السورة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث قتادة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال". وفي رواية أخرى: "من قرأ العشر الأوائل من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال"¹⁵.

وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين السماء والأرض"¹⁶.

2- سبب نزولها:

روى الطبري في تفسيره أن قريشاً أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقال أحبار اليهود لهم: اسألوه عن ثلاث نأمركم بها، فإن أخبركم بها فهو نبي مرسل إليكم، وإن لم يخبركم فهو كذاب: اسألوه عن شباب مضوا في العصر الأول وما حل بهم، فإن لهم قصة عجيبية. اسألوه عن رجل تأته بلغ مشارق الأرض ومغاربها وما قصته؟ واسألوه عن الروح وما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه. وإن لم يخبركم فهو كاذب فافعلوا به ما رأيتم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سأخبركم غداً بما سألتهم عنه"، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة، لا يوحى الله إليه في ذلك شيئاً، ولا يأتيه جبريل عليه السلام. ففزع أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، ولنا اليوم خمسة عشر يوماً ولم يخبرنا بشيء مما سألناه عنه. فأحزن تأخر الوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحزنه ما يقوله أهل مكة. ثم أتاه جبريل عليه السلام من عند الله تعالى بسورة الكهف. وفيه لومه له على حزنه عليهم وعلى خبر ما سألوه عنه¹⁷.

3 - محور السورة:

تدور السورة حول محور أساسي وركائز أساسية من ركائز هذا الدين. وهو الغاية الأساسية التي من أجلها نزل القرآن: إنه النجاة من أمواج الفتن العاتية وتشابكها، فتن متباينة ومتزاحمة ومتداخلة، تترك العاقل حائراً: فتنة الشباب، فتنة المال، فتنة العلم، فتنة السلطان، فتنة الأهل والعشيرة، فتنة الأبناء، فتنة الدنيا الفانية، فتنة الشيطان الرجيم، فتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة الشهوات¹⁸.

يرى سيد قطب أن محور السورة، الذي تترابط حوله مواضيعها ويدور حوله سياقها، هو إصلاح الإيمان، وتصحيح منهج الفكر والتأمل، وتصحيح القيم على قدر هذا الإيمان.¹⁹ ولا تناقض بين النظرتين، فهما ينبعان من وعاء واحد. تتحدث السورة عن الفتن المتنوعة التي تواجه الإنسان في حياته، ولا سبيل لمواجهتها ومقاومتها إلا بسلاح الإيمان الصحيح، بالاعتصام بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر. كما يؤمن بأن ما أعده الله للمؤمنين خير وأبقى من متاع الدنيا الزائل وزينتها الفانية.

4 - موضوعات السورة:

أ - مفتتح السورة يشيد بنزول الكتاب، وتتضمن تحذيرًا للمعاندِين الذين نسبوا إلى الله ولأًا، وبشرى للمؤمنين، وعزاءً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أقوالهم عند تأخير الوحي، كما هو من عادة الله مع أوليائه، وهو لوهم على تقصيرهم في آداب السلوك. كما تذكر شغف المشركين بالحياة الدنيا وزينتها، وعدم تركيتهم للنفس.

ب - ثم انتقل إلى قصة أهل الكهف، فحذرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم، ليحذروا كيده.

د - ذكر استطرادات بين قصص هداية النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وتصديقه، وأن الحق فيما أخبرهم به، وأن أصحابه الذين اتبعوه خير من أئمة المشركين، وبين الوعد والوعيد، وتمثيل المؤمن والكافر، وتمثيل الحياة الدنيا وفاتها، وما بعدها من البعث والحشر، والتذكير بعاقبة الأمم التي كذبت الرسل.

هـ - وتختتم السورة بدحض الشرك، وتهديد أهله، ووعد المؤمنين بضده، وبيان سعة علم الله، كما تختم ببيان أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.²⁰

5 - مناسبات السورة:

1- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

اسم السورة عنوان للنص، كما ذكرنا سابقًا. العنوان هو ما يُجدد موضوع النص أو الأفكار التي يُعالجها، وهو بدوره يُسهم في التأسك الدلالي للخطاب. وإذا تأملنا هذا الاسم (الكهف) ومواضيع السورة، وجدنا تناغمًا جميلًا بين الاسم والمواضيع، فالمواضيع المطروحة في هذه السورة الكريمة، فمن تأملها ولجأ إليها، كان كهف حصين من كل فتنة، كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا كان الوضع الذي لجأ إليه الفتية كهفًا محسوسًا ملموسًا، يحميهم من فتنة الملك الكافر وبطشه، فإن الكهف الذي يلجأ إليه قارئ هذه السورة هو كهفٌ روحيٌّ من عناية الله تعالى وحفظه وستره، فلا تؤثر فيه الفتن المطروحة، ولو كانت كقطع ليلٍ مظلم.²¹

2- المناسبة بين بداية السورة وختامها:

يتميز الكلام البليغ بالترايط بين بدايته وآخره، وهذا هو حال القرآن في جميع سورته، فنجد ترايطًا بين بدايته ونهايته. وقد ألف السيوطي في هذا الصدد كتابه: مراد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع. ويمكن تلخيص المناسبة بين فواتح سورة الكهف وخواتمها بما يلي:²²

- استهلّت السورة بالثناء المطلق على الله، فهو المستحق لهذا الشاء المطلق وحده. وسبب ذلك أنه أنزل هذا الكتاب العظيم على محمد عبده ورسوله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا} [الكهف: 1]. وفي نهاية السورة، خُص الله تعالى بالعبادة والذكر والشكر

وسائر الأعمال الصالحة. قال تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إليكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) [الكهف: 110]. وهكذا تبدأ السورة بذكر الألوهية وتنهي بذكر الربوبية.

— وقد ذكرت حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه بشرٌ من عباد الله، لا يتميز عن غيره من البشر بشيء، لا في مظهره ولا في سيرته ولا في الحوادث والوقائع التي تصيبه. وقد جاء ذلك في مطلع السورة، في قوله تعالى: {أنزل على عبده الكتاب}. وفي خاتمتها، بشره الله بالوحي، في قوله تعالى: {قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ}.
— بيان أن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي التبشير والإنذار إذ كما ذكر في بداية السورة في قوله تعالى: {فَيُنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كَانَتْ فِيهِ أَبْدًا} [الكهف: 2، 3]. وفي قوله تعالى: {وَيُنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [الكهف: 4]

كما جاء بيان المهمة بشقيها في خاتمة السورة في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَدْخُلُونَ عَنْهَا جُولًا} [الكهف: 107، 108]. وجار الإنذار في قوله تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} [الكهف: 102].

وقد جاء في مطلع السورة أن الحياة الدنيا دار فتنه وأنها دار فناء وليست مقياساً للتفريق بين الناس، يقول الله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِيَبْهُتُوا أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [الكهف: 7، 8]. واختتمت بقولها: إن من أثر الحياة الدنيا وزينها وتباهى بها على الناس فلا قيمة له في الآخرة. كما في قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا} [الكهف: 105]

3 – المناسبة بين السورة والتي قبلها (الإسراء):

ينبع ارتباط السور من كون ترتيبها توقيفي. ولعلّ هذا الارتباط بين نهايات السور وبدايات السور التي تليها من العوامل التي تدعم هذا الرأي، وتؤكد أن القرآن جملة واحدة. ويمكن تلخيص أهم الارتباطات بين نهاية سورة الإسراء وبداية سورة الكهف فيما يلي:²³

1- في ختام الإسراء أمر الله تعالى رسوله الكريم بالثناء على الله، فقال: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} [الإسراء: 111]. فكان النبي صلى الله عليه وسلم استجاب لأمر ربه فقال في مطلع سورة الكهف: {الحمد لله}.
2- ذكر الكتاب في آخر سورة الإسراء، فقال: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ} [الإسراء: 105]. {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء: 105]، وقد ذكره الله تعالى في أول سورة الكهف، فقال: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً} [الكهف: 1-2]، وقال فيه: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْجًا}، وقال فيه: {مُسْتَقِيمًا}. أي: أنزله بالحق وبالحق نزل.

3- قال في آخر سورة الإسراء: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مَبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء: 105]، وقال في مطلع سورة الكهف: {لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [الكهف: 2]. وكلا الآيتين تحذير وبشرى

4- قال في آخر سورة الإسراء: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} [الإسراء: ١١١]، وقال في مطلع سورة الكهف: {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [الكهف: ٤].

4 — مناسبة السورة للسورة التي بعدها (مريم):

لما قال تعالى: {أُمِّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا مَجْجَبًا} [الكهف: 9]، ثم ذكر قصتها وقصة موسى والحضر عليها السلام، وقصة ذي القرنين. ثم أعقب ذلك بقصص فيها من العجائب ما هو أغرب، وأخفى. فافتتح سورة مريم بيجي بن زكريا، وبشارته لزكريا بعد الكبر، وقنوط المرأة، وعقمها، حتى سأل زكريا متسائلاً متعجباً: {قَالَ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} [مريم: 8]، فأجابه الله تعالى بأن ذلك عليه يسير، وأنه سيجعله آية للناس. وهذا الأمر أدهش من القصص السابقة، فكان قائلاً: "أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا العجيبة؟" سنقص عليك قصتهم، ونقل لك ما هو أدهش وأعجب وأوضح، وهو قصة زكريا في ابنه يحيى عليها السلام، وقصة عيسى عليه السلام في وجوده بلا أب، ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا تتوقف على شيء من آثارها إلا بمقتضى شرع الله، بل الفعل له سببانه، لا لسبب. وهذا ما أشار إليه الله تعالى في قوله لزكريا عليه السلام: {ولقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً} [مريم: 9]. ثم أعقب الله تعالى بشرى زكريا بقيام يحيى صبيّاً، ثم ذكر مريم وابنها عليها السلام، والآيات التي بعدها متصلة إلى آخر السورة.²⁴

5— المناسبات بين مقاطع السورة:

نذكر في هذا الجزء من البحث المناسبات الخفية التي تربط بين مقاطع السورة، والتي يبدو ظاهرها أنه لا يوجد صلة ولا علاقة بينها، فنبين أن هذه المقاطع منسجمة فيما بينها، وأنها كلها تدور حول محور السورة الذي ذكرناه من قبل.

1 — افتتاحية سورة الكهف:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا... إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} [الكهف: 1-5]

يرى ابن عاشور أن الموضوع الافتتاحي لهذا الشئ يشبه موضع الخطبة، حيث يتم افتتاح الخطاب حول موضوع مهم.²⁵

فقد بدأ الله تعالى سورة الكهف بحمده، وذكر نعمة الكتاب، والشدة التي أنزلها على قريش وكفار العرب يوم بدر وعام الفتح، وبشر المؤمنين بذلك، والنعيم المقيم الذي أنعم الله به عليهم، وحذر من آمن من النصارى بالولد، وعظم جرمهم، وفضاعة قولهم {إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}، وعزى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمرهم جميعاً {فلعلك باخع نفسك} [الكهف: 6]، واجتمعت الآيات في أعظم وأحسن تنام، لذكر ما سأل الكفار عن أمر الفتية {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا} [الكهف: 9]. "ثم تأتي الآيات لتفصيل قصتهم، وتبيان أمرهم."²⁶

2 — {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَتَّبِلُوهُمْ فِيهِمْ أَخْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [الكهف: 7-8].

خلق الله تعالى الدنيا وزينها لعباده اختباراً لهم وامتحاناً، ولم يكن على النبي إلا التبليغ. إلا أن الله سيعاقبهم على كفرهم بالقحط والجوع بعد أن اغتروا بزينة الدنيا. فسياق هذه الآية هنا... أنها عزاء للنبي صلى الله عليه وسلم في نفور المشركين، حيث أمهلهم الله وأعطاهم زينة الدنيا ليشكروه، وأنهم استكبروا عن النعمة، فينزعه الله عنهم النعمة، وتصبح أرضهم قاحلة". وهذا إشارة إلى أن سبع سنين قحط ستصيبهم، وهي التي طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه أن يجعلها للمشركين كسنوات يوسف عليه السلام، وهذا مرتبط بقوله: (لينذر بأساً شديداً من لدنه) [الكهف: 2]²⁷.

3 — قصة أهل الكهف: قال تعالى: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) [الكهف: 9]. جاءت هذه الآية لتستخف بعقول المشركين الذين تعجبوا من قصة أهل الكهف. وقد ذكر في الآية السابقة ما هو أدهش من ذلك، وهو خلق الأرض وعمرانها بأنواع الزينة والملاذات المختلفة. وفيها عجائب تدل على قدرة الله تعالى وعظمته. ثم إذا شاء الله تعالى، حولها إلى رماد وتراب، كأنها لم تكن. وهو قادر على إحيائها مرة أخرى. وهذه الآية، مع الآية التي قبلها، تشيران إلى الإحياء بعد الموت. ولذلك، فإن الآيتين منسجمتان ولا تناقض بينهما. ويوضح الرازي أن الناس تعجبوا من قصة أهل الكهف وسألوا الرسول عنها اختباراً. قال الله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا؟) فهذا ليس بعجيب، فمن استطاع أن يخلق السماوات والأرض، ثم يزينا بالمعادن والنبات والحيوان، ثم يجعلها بعد ذلك فقراً خالياً من كل شيء، فكيف يُمنعون من قدرته وحفظه ورحمته وقد حفظ جاعة ثلاثمائة عام أو أكثر نائمين؟²⁸

وهكذا تمضي الآيات في سرد قصة أصحاب الكهف، الذين لم يثبهم شبابهم ورخاؤهم عن الفرار بإيمانهم من ظلم الملك الجائر. فأنامهم الله بقدرته ثلاثة قرون، يعيشون في رحمته، حتى بعثهم الله تعالى من نومهم، فيه دليل على قدرة الله على إحياء الخلق بعد موتهم. ثم تذكر الآيات اختلاف الناس في عددهم، ثم تنتقل الآيات إلى نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن محاولة معرفة أحوال أصحاب الكهف من النصارى الذين عاشوا في عصره، لعدم أمانتهم لتحريفهم الإنجيل.

4 — ثم استطراد أثناء القصة بآية لم تخرج عن سياق القصة، فقال تعالى: {وَلَا تَقُولُ لِمَنْ يُغْنِي عَنْكَ اللَّهُ شَيْئاً إِنَّهُ فَقِيرٌ ذَلِكُمْ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادُّرْ رَبُّكَ إِذَا تَبَيَّنَتْ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [الكهف: 23، 24]. ففيها يوضح الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على قوله للمشركين حين سألوهم عن الروح والفتية وذوي القرنين: "غداً أخبركم بجواب ما استفسرتم عنه، ولم يستثن، فنزلت عليه هذه السورة فرحاً. وفي هذه الآية أمره ألا يقول في أمر: "سأفعل كذا وكذا غداً"، إلا أن يربط ذلك بقضاء الله تعالى²⁹.

هـ — ثم ذكر الله تعالى مدة لبثهم في الكهف تحديداً، وأنه سبحانه يعلم الغيب فلا يخفى عليه شيء، وانتهت القصة بقوله تعالى: {وَأَنْتُمْ مَا أَوْحَى إِلَيْنَا مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الكهف: 27]. قال بعض المفسرين إن هذه الآية هي آخر ما ورد في قصة أهل الكهف، فما جاء بعدها يدل على كمال صدقه. وهذه الآية تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه إلى دراسته وتلاوته والانشغال به وتعلم أحكامه واتخاذها أوامر ونواهي³⁰.

و - بعد أن انتهت قصة أصحاب الكهف الذين تركوا ملذات الدنيا ولجأوا إلى الكهف هاربين بإيمانهم الصادق انتقل الخطاب القرآني إلى رفع شأن أهل الإيمان، وحط شأن أهل الدنيا والجاه والسلطان، فبدأ بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف:28]، وقيل: إنها نزلت في أشرف قريش حين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم على انفراد، ولا يجلس معهم ضعفاء أصحابه فهناه الله عن ذلك وأمره بالصبر في مجالسة هؤلاء³¹.

سبب نزول هذه الآية بعد قصة أصحاب الكهف أن قيمة الإنسان في إيمانه بربه، وإن كان ضعيفا فقيرا مُعوزًا. ثم إن الله تعالى ينصر هؤلاء الضعفاء من المسلمين ويرفع درجاتهم، كما نصر أصحاب الكهف على عدوهم وخذل ذكرهم.

5 - قصة صاحب الجنتين: قال تعالى: {وَاصْرُبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَّفْنَاهُمَا بِنَخْلِ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا} [الكهف:32].

وتستمر الآيات بالقصة الثانية في هذه السورة لثبوت أن القيمة الحقيقية هي الإيمان، وأن المال يُغري صاحبه ويكبره إلا من أخذه بحقه. فبعد أن أمر الله نبيه بالصبر على فقراء المؤمنين، وعدم طاعة هؤلاء الأغنياء المشركين... أعقب ذلك بمثل يتبين منه أن المال لا ينبغي أن يكون مصدر فخر، لأنه ظل زائل، وأن الفقراء غالبًا ما يُغنون والأغنياء يُفقرن. بل إن ما ينبغي أن يكون أساس الفخر هو طاعة الله وعبادته والعمل لما يرضيه في دار الكرامة، ضرب الله المثل لبيّن حال الفريقين، المؤمنين والكافرين، فالكفار على تقلبهم في الرخاء عصوا ربهم، والمؤمنون على ما يعانونه من ضيق وفقر أطاعوه³².

6 - تتوالى الآيات في تناغم واضح في حوار بين الرجلين، فالمؤمن رضي بما قسمه الله له، وعرف قيمة الإيمان، فتمسك به. أما صاحب الجنتين الكاف أثر الدنيا وظن أنه سيخلد فيها. ثم يختم رب العزة سبحانه هذا المشهد بضرب مثل على سرعة فناء الدنيا، فيقول: {وَاصْرُبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف:45].

ويقرر أن المال والأولاد زينة وليسوا قيمة. لا ينبغي قياس الناس أو تقييمهم على أساس حياتهم. القيمة الحقيقية تكمن في الأعمال الصالحة، والأقوال الصالحة، والعبادات الباقية، فيقول: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف:46].

ويلخص سيد قطب الآيات السابقة معبرا عن انسجامها وتعاقبها فيرى أن الوصية الإلهية الموجهة للرسول صلى الله عليه وسلم - بالصبر على الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، تنسجم مع الإشارة إلى قصة الجنتين، ومع ظل المثل الذي ضرب للحياة الدنيا، ومع هذا التقرير الختامي عن قيم الدنيا والآخرة... ويشترك الجميع في تصحيح القيم حسب ميزان الإيمان. وهم جميعا متساوون في السورة، وفقا لقاعدة التناسق الفني والعاطفي في القرآن الكريم³³.

7 - ثم يخبرنا الله تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المزعجة الأليمة بقوله: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَأَمُّ نَعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف:47] إلى قوله تعالى: {وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف:49]

وأما صلته بما سبق فهو أنه بعد أن بين لهم زوال نعيمهم إنذاراً، أعقبه بتذكير بما بعد ذلك الزوال، بوصف حال القيامة وما ينتظرهم من عقاب على كفرهم به، وهذا بخلاف نقيضه المذكور في قوله: والباقيات الصالحات خير [الكهف: 46]³⁴.

8 — {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: 50]

وبعد أن ذكر الله تعالى رده على أولئك المشركين الذين كانوا يتباهون على فقراء المؤمنين بأموالهم وأولئهم، فقال: كيف تقعد مع هؤلاء ونحن أشرف النسب وهم وضيعو النسب، ونحن أغنياء وهم فقراء؟ ثم ذكر معصية إبليس لأمر الله بالسجود لآدم، فإن الذي حمله على ذلك هو كبرياؤه واعتزازه بأصله ونسبه. إذ قال: (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) [الأعراف: 12]، إشارة إلى أن هذه طريقة إبليس، ثم حذر منها في قوله: (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ)³⁵.

9- قصة موسى مع الخضر:

قال تعالى {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: 60] قصة أخرى تشترك في نفس الهدف والمعنى: السفر حول الأرض بحثاً عن الخير. هذه هي رحلة موسى عليه السلام بحثاً عن لقاء من يملك من العلم ما يحله موسى.

وفي سياق هذه القصة إشارة إلى أهل الكتاب، وأن الأفضل لهم أن يرشدوا الناس إلى أخبار أنبياء بني إسرائيل، وأن يسافروا لطلب العلم والحكمة، لا أن يوسعوا الملك والسلطان.³⁶

وتتضمن هذه القصة أيضاً رداً على الكفار الذين كانوا يتباهون أمام فقراء المسلمين بكثرة أموالهم ومعونتهم. فموسى عليه السلام كان قوياً في علمه وعمله، عالي المقام، جامعاً لكل مقتضيات الشرف الكامل، ذهب إلى الخضر يطلب العلم متواضعاً، مما يدل على أن التواضع خير من الكبر.³⁷

أما سيد قطب فله رأي آخر، فيرى أن قصة موسى والعبد الصالح - في سياق السورة - ترتبط بقصة أهل الكهف الذين يتركون الغيب لله، الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي حرم منه البشر، قائماً خلف الحجب، فلا يكشف لهم الأسرار الخفية وراءهم إلا بقدر معين.³⁸

وهكذا تتوالى أحداث هذه القصة في تناغم واضح في حوار موسى عليه السلام والخضر، وما دار بينهما من حديث حول السفينة والغلام والجدار. وتنتهي بإجابات الخضر التي تُبين حكمة الله تعالى وسعة علمه. وغايتها تصحيح الإيمان وإعلاء شأن العلم والعلماء، والتحذير من فتنة العلم، فلا بد من نسبته إلى الله وحده. وكل هذه المعاني مرتبطة بموضوع السورة، كما ذكرنا سابقاً.

10- قصة ذي القرنين:

قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا} [الكهف: 83] وقوعها في هذا السياق، وارتباطها بقصة موسى عليه السلام والخضر، ليسا ببعيدين عن الموضوع. فقد رأينا، مع سيد قطب، أن القصتين مرتبطتان في أن علم الغيب منوط بالله وحده، وأنه أحاط بكل شيء علماً، وأنه الحكيم

في أفعاله. فالإنسان مهما أوتي من علم وقوة وسلطان، محتاج إلى رحمة الله وهداية. وللبقاعي رأي آخر في سرّ تقديم قصة موسى والخضر على قصة ذي القرنين، فيرى أنه لما فرغ من هذه القصة التي كان مضمونها أنها رحلة في الأرض طلباً للعلم، أعقبها بقصة من طاف في الأرض طلباً للجهد، فقدّم الأولى دلالةً على علوِّ العلم، لأنه أساس كل سعادة وأساس كل أمر³⁹.

تتوالى أحداث قصة ذي القرنين بتناغم واضح. تذكر القصة رحلاته الثلاث شرقاً وغرباً ووسطاً، وبنائه سدّاً على يأجوج ومأجوج. وتختتم بهدف تصحيح العقيدة بقول ذي القرنين: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [الكهف:98] لم ينسب إليه شيء، وقصته مثالاً للسلطان الناجح الذي لم يفتنه علمه ولا سلطانه ولا جاهه، ثم ذكر خروج يأجوج ومأجوج بقدرة الله تعالى وهدمهم السد الذي بناه ذو القرنين لمنع فسادهم، فيعيشون في الناس فساداً حتى يهلكهم الله تعالى. وخروجهم من أشرار الساعة الكبرى، دلالةً على نهاية الدنيا، ولذلك قرنها بمشاهد من يوم القيامة. وذكر الله تعالى العذاب الذي أعدّه للكافرين في جهنم جزاءً على كفرهم ببرهم واستهزائهم برسله وآياته. فقال تعالى: {ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِحَبْلٍ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف:106]، ثم أعقب ذلك بما يحث المؤمنين على فعل الخيرات، كالجنات التي تجري من تحتها الأنهار، جزاءً لهم وتبعاً لتوبتهم إليه واستسلامهم له، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [الكهف:107]، ثم ختم السورة ببيان حال القرآن الذي ذكر فيه الدلائل والبيّنات على وحدانيته وإرساله الرسل والبعث والجزاء للدلالة على فضله العظيم⁴⁰.

11- ختام السورة:

قالت تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف:109]

صلة هذه الآية بما قبلها أن هذه السورة لما بدأت بذكر القرآن، ثم فاضت بأنواع الهداية والإنذار والوعد والوعيد، وذكرت فيها أحسن القصص المشتملة على العبر والعظات، وما خفي من أحوال الأمم، تحول الكلام إلى أن ذلك كله قليل من علم الله العظيم⁴¹.

خاتمة:

وبعد نهاية هذا البحث نستخلص ما يلي:

- 1- دراسة القرآن دراسة نصية من خلال الوقوف على بيان الانسجام بين سوره وآياته طريق إلى كشف الإعجاز البياني للقرآن الكريم.
- 2 - وجود إشارات في التفسيرات القديمة وكتب علوم القرآن تمت بصلة إلى الدراسة النصية من خلال تفسير القرآن بالقرآن وعلم المناسبات وغيرها. وهي في حاجة إلى دراسات وافية.
- 3 - التفسير الموضوعي تفسير عصري يولي اهتماماً كبيراً بالدراسة النصية في معرفة محاور السور وأهدافها وبيان المناسبات فيما بينها.
- 4- تتميز كل سورة قرآنية بوحدة موضوعية عامة تدور حولها مقاطع السورة وأشواطها ممّا يكسب السورة تماسكاً وتلاحماً، وفيه رد على المستشرقين الذين يرون أن السورة مجموعة من المواضع المتنوعة لا صلة بينها.

- 5 — علم المناسبة علم عظيم يقوم على التدبر والتأمل والاستنباط، ويكشف لنا أسرار القرآن الكريم من خلال العلاقات بين السور والآيات. وبه يتضح انسجام النص القرآني من بدايته إلى نهايته في تسلسل دلالي.
- 6 — لتكرار القصة الواحدة في عدة سور حكم وأسرار، فالقصة لها علاقة وطيدة بمحور السورة التي وردت فيها وتنسق مع أهدافها.
- 7 — قد يختلف المفسرون والباحثون المهتمون بعلم المناسبة في تحديد مناسبة ما في موضع ما، وهذا اختلاف تنوع يؤكد الثراء الدلالي للقرآن واتساع معانيه.

هوامش:

- ¹ أحمد السيد الكومي ومحمد أحمد القاسم، 1982، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ط1، طبعة خاصة، القاهرة، ص16، 17.
- ² مصطفى مسلم، 2005، مباحث في التفسير الموضوعي، ط4، دار القلم، القاهرة، ص29.
- ³ زاهر بن عواض الألمي، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، 2007، ط4، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ص123، 126.
- ⁴ محمد عبد الله دراز، 2005، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به أحمد مصطفى فضلية، دط، دار القلم، دمشق، ص188.
- ⁵ سعيد حوى، 1985، الأساس في التفسير، ط1، دار السلام، مصر، ج1 ص18.
- ⁶ الزركشي، برهان الدين، 1957، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، ج1 ص270.
- ⁷ ابن فارس، 1979، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، ج5 ص424.
- ⁸ ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، ج1 ص755.
- ⁹ البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دط، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج1 ص6.
- ¹⁰ المرجع نفسه، ج1 ص10، 11.
- ¹¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1 ص36.
- ¹² السيوطي، جلال الدين، 1974، الإتقان في علوم القرآن، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج3 ص376.
- ¹³ الخطابي، محمد، 1991، اللسانيات النصية: مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص205.
- ¹⁴ ابن عطية الأندلسي، 1422هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3 ص494.
- ¹⁵ مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1 ص555، 556.
- ¹⁶ أحمد بن حنبل، 1999، مسند الإمام أحمد، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج24 ص390.
- ¹⁷ الطبري، محمد بن جرير، 2000، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ¹⁸ مصطفى مسلم وآخرون، 2010، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ط1، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، مج4 ص287.
- ¹⁹ سيد قطب، 1412، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ج4 ص2257. وينظر: محمد علي الصابوني، 1979، إنجاز البيان في سور القرآن، ط2، مكتبة الغزالي، المدينة المنورة، ص74.

- ²⁰ محمد الطاهر ابن عاشور، 1984، التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، ج15 ص246.
- ²¹ مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص184.
- ²² المرجع نفسه، ص180. وينظر: فاضل صالح السامرائي، 2016، التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم، ط1، دار ابن كثير، بيروت، ط1، ص33، 32.
- ²³ فاضل صالح السامرائي، التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم، مرجع سابق، ص110، 111.
- ²⁴ ينظر: الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، 1990، البرهان في تناسب سور القرآن، ت: محمد شعباني، دط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ص251، 252.
- ²⁵ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج15 ص246.
- ²⁶ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصدر سابق، ج12 ص09، 10.
- ²⁷ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج15 ص256.
- ²⁸ الرازي، فخر الدين، 1420، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج21 ص428.
- ²⁹ القرطبي، 1964، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج10 ص385.
- ³⁰ أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى، زهرة التفاسير، دط، دار الفكر العربي، بيروت، ج9 ص4521.
- ³¹ ينظر: ابن كثير، 1419هـ، تفسير القرآن العظيم، ت: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5 ص137.
- ³² المراغي، أحمد بن مصطفى، 1946، تفسير المراغي، ط1، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ج15 ص147، 148.
- ³³ المرجع نفسه، ج4 ص2272.
- ³⁴ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج15 ص334.
- ³⁵ المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج15 ص160.
- ³⁶ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج15 ص359.
- ³⁷ الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج21 ص477.
- ³⁸ سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4 ص2282.
- ³⁹ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج12 ص128.
- ⁴⁰ المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج16 ص25.
- ⁴¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج16 ص51.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم

- (1) إبراهيم صبحي الفقي، 2000، علم اللغة بين النظرية والتطبيق، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة.
- (2) ابن عطية الأندلسي، 1422هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (3) ابن فارس، 1979، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، دط، دار الفكر، القاهرة.
- (4) ابن كثير، 1419هـ، تفسير القرآن العظيم، ت: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (5) ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت.
- (6) أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى، زهرة التفاسير، دط، دار الفكر العربي، بيروت.

- (7) أحمد السيد الكوي ومحمد أحمد القاسم، 1982، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ط1، طبعة خاصة، القاهرة.
- (8) أحمد بن حنبل، 1999، مسند الإمام أحمد، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (9) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دط، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- (10) الخطابي، محمد، 1991، اللسانيات النصية: مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء.
- (11) الرازي، فخر الدين، 1420، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (12) زاهر بن عوض الألمي، 2007، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ط4، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط4.
- (13) زاهر بن عوض الألمي، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط1، 1405هـ.
- (14) الزركني، برهان الدين، 1957، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1376هـ/1957م.
- (15) سعيد حوى، 1985، الأساس في التفسير، ط1، دار السلام، مصر.
- (16) سيد قطب، 1412، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، بيروت، القاهرة.
- (17) السيوطي، جلال الدين، 1974، الإنشاق في علوم القرآن، محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- (18) الطبري، محمد بن جرير، 2000، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (19) الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، 1990، البرهان في تناسب سور القرآن، ت: محمد شعباني، دط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
- (20) فاضل صالح السامرائي، 2016، التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، ط1، دار ابن كثير، بيروت، ط1.
- (21) القرطبي، 1964، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2.
- (22) محمد الطاهر ابن عاشور، 1984، التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، تونس.
- (23) محمد عبد الله دراز، 2005، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به أحمد مصطفى فضلية، دط، دار القلم للنشر والتوزيع، دمشق.
- (24) محمد علي الصابوني، 1979، إيجاز البيان في سور القرآن، ط2، مكتبة الغزالي، المدينة المنورة.
- (25) المراغي، أحمد بن مصطفى، 1946، تفسير المراغي، ط1، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- (26) مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (27) مصطفى مسلم وآخرون، 2010، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ط1، جامعة الشارقة، الإمارات العربية.
- (28) مصطفى مسلم، 2005، مباحث في التفسير الموضوعي، ط4، دار القلم، القاهرة.